النفحة السادسة: رَمَضَانُ شهر الرحمة والتراحم

رَمَضَانُ شهر أوله رحمة، وكله مرحمة، رحمة لمن أصابه خلال العام الخطأ والعثار، وأرداه طيش الغرائز واضطراب اليقين، وهو رحمة متزايدة للأطهار من عباد اللَّه الصالحين، الذين اصطفاهم اللَّه تعالى منذ النشأة الأولى من أرقى المعادن وأصفى الطبائع...

رحمة تظلل العابدين والتائبين في آن واحد، فيجثو العبد الأوّاب في ساحة الرحمٰن الرحيم، ثم يهتف من أعماق فؤاده: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: 118] ليستحق بعدها الرضوان الأعلى، والثواب الأوفى.

واللَّه تبارك وتعالى هو الرحمٰن الرحيم، ورحمته سبقت غضبه، ونعمته سبقت نقمته وهو أرحم بعبيده منهم بأنفسهم، وهذا ما رواه البخاري في صحيحه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار**»، قلنا: لا وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «**للَّه أرحم بعباده من هذه بولدها**»[1].

فالرحمة خُلُقٌ رفيع، ووصف نبيل كريم، تفضل به الإله ﷻ على مخلوقاته جميعاً فشمل الإنسان وغيره، يقول النبي ﷺ: «**جعل اللَّه الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»[2].

وإن أعظم رحمة تكرّم الحق ﷻ بها علينا أن هدانا للإسلام، وأعظم بها من

(1) رواه البخاري، 5/ 2235، رقم: (5653).

(2) رواه مسلم، 4/ 2108، رقم: (2752).

رحمة مباركة، ولولاها لكنا اليوم نتخبط في دياجير الظلام، ومستنقعات الهوى الآسنة، فهدايته لنا للإيمان به وبرسوله (واتباع الإسلام، قمة الرحمة الربانية، وهذا هو السر في أن الحق تبارك وتعالى يقرن في كتابه العزيز في كثير من المواطن الرحمة بالهداية، ولنصغ إلى بعض الآيات في هذا الشأن، يقول تعالى واصفاً حال المؤمنين المخبتين له: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عِمرَان: 8].

وعندما طوي ملف سورة يوسف عليه السلام، وما فيها من أحداث ووقائع، ومد وجزر في حيثيَّاتها، قال تعالى معقباً: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يُوسُف: 111].

ولما عرّج القرآن الكريم للحديث عن صبر الصابرين، واسترجاعهم إذا نزلت بساحتهم المنايا، قال تعالى مبيناً حالهم وجزائهم: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البَقَرَة: 157].

كما أن هناك نصوصاً قرآنية كثيرة تسهب في الثناء على الكتاب العزيز، الذي أنزله الله تعالى تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة للمسلمين، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: 89]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يُونس: 57] فالهدى والرحمة صفتان متلازمتان لا تنفك إحداهما عن الأخرى، وما ينتج عنهما من خير للعباد إنما هو من إشراقات صفة العطاء الربانية.

والرحمة في إطارها الرحيب وأفقها الواسع صفة عامة، ورباط عريض، ينضوي تحت ظله الجميع، لأن الرحمة بمفهومها العام هي تلك التي استكنّت في قلب المسلم، وهي دليل على كمال إيمانه، وبرهان ساطع على شفافية روحه، ورقة مشاعره تجاه الآخرين، يقول النبي ﷺ: **«لن تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على ما تحابوا عليه»**، قالوا: بلى يا رسول الله قال: **«أفشوا السلام بينكم تحابوا، والذي**

نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا»، قالوا: يا رسول الله كلنا رحيم، قال: **«إنه ليس برحمة أحدكم ولكن رحمة العامة»**[1].

فلم تكن الرحمة التي ينشدها الإسلام يوماً من الأيام مقصورة على فئة بعينها، أو جماعة لوحدها إنما هي رحمة تنير بإشعاعاتها العامة، بل وتتعدى إلى المخلوقات الأخرى سواء ما كان منها في عالم العجماوات، أو في ساحة المكونات كلها، وهذا ما أكده النبي ﷺ في كثير من أحاديثه، يقول ﷺ: **«من لا يَرحم لا يُرحم»**[2]، ويقول ﷺ: **«الراحمون يرحمهم الله، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء»**[3].

ولنا أيها الأحباب أن نسير مع أفرع هذا الحديث في صور متعددة من الرحمة التي جاء بها الإسلام، وأول انعكاسات صور الرحمة هذه تكون على الوالدين، بحيث يكون الولد غاية في البر لهما، والحنو عليهما، ومبالغاً في طاعتهما الحقة، يقول تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسرَاء: 24].

وما أجمل تشبيه القرآن هذا، حيث شبه الولد البارّ بطائر له جناحان، ومن شأن الجناحين أن يرقيا بالطائر صعداً في أجواء السماء ويحلقا به في الآفاق، لكنّ هذا الطائر وهذين الجناحين إذا واجها الوالدين فإنهما يلتصقان في الأرض، ذلاً ورحمة وبراً بهما ويبقى الولد البارّ رطب اللسان بالدعاء لهما، وقت خشوعه ونجواه مع الباري تبارك وتعالى ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسرَاء: 24].

فبادر أخي الصائم إلى رحمة والديك في شهر المرحمة رَمَضَانَ، فإن كنت من أهل الصلاح ومن وفَّقه الله تعالى لبر والديه فهنيئاً لك، ثم طوبى لعملك، وزدْ من هذه الطاعة المباركة حتى يرفع الله قدرك في الدارين، وإن كنت يا أيها الصائم من

(1) الحاكم في المستدرك، 4/ 185، رقم: (7310)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وغيره.
(2) رواه البخاري، 5/ 2235، رقم: (5651).
(3) الحاكم في المستدرك، 4/ 175، رقم: (7274)، وصححه.

أهل الجفوة أو العقوق والعياذ باللَّه تعالى فتبْ إلى مولاك، وأقلع عما أنت منغمس فيه من العقوق، فإن العاق لا يدخل الجنة ولا يجد ريحها، وسارع بتوبة تملأ أقطار نفسك، وأوبة صادقة إلى والديك وانكب على قدميهما، طالباً الصفح والعفو عما مضى، ليرضيا عنك هما ورب الأرباب تبارك وتعالى.

وينبثق عن رحمة الوالدين صورة من أجلى صور التراحم التي ينشدها رَمَضَانُ، ألا وهي: رحمة ذوي القربى والأرحام، ولَكم فرط كثير من المسلمين في زماننا بهذه الرحمة وأصبحت قطيعة الأقارب والأرحام، والصدود عنهم مظهراً قاتماً في حياتهم، ورسولنا (أخبرنا أن قاطع الرحم مقطوع ومطرود من رحمة اللَّه تعالى، عن عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**قال اللَّه تعالى: أنا الرحمٰن خلقت الرحم وشققت لها شعبة من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته**»[1]، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال نعم: أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك، قالت بلى يا رب، قال فهو لك، قال رسول اللَّه: فاقرؤوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾**[2] [محمَّد: 22].

ومن صور الرحمة السامية، رحمة البنين والبنات الذين هم فلذات الأكباد، وبهجة الدنيا ونضارتها، وزينة الحياة ورونقها، وحبهم ورحمتهم دليل على إحساس مرهف، وطبع سليم، وقلب رقيق أُكرم به العبد المسلم، ففي البخاري من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه، قال: كان رسول اللَّه ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الآخر، ثم يضمهما، ثم يقول: «**اللَّهم ارحمهما فإني أرحمهما**»[3].

(1) الحاكم في المستدرك، 4/ 175، رقم: (7272)، وقال: حديث صحيح، وورد في الصحاح.
(2) رواه البخاري، 5/ 2232، رقم: (5641).
(3) رواه البخاري، 5/ 2236، رقم: (5657).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**مَن لا يَرحم لا يُرحم**»[1].

وعن عائشة ﷺ قالت: جاء أعرابي إلي النبي ﷺ فقال: تقبِّلون الصبيان؟ فما نقبِّلهم، فقال النبي ﷺ: «**أوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة**»[2].

والأمر ليس مقصوراً على أولادك أخي الصائم، إنما رحمتك ينبغي أن تمتد إلى كل الأطفال، لأن الصغار بحاجة إلى حنان كبير، وعطف عريض، ورعاية وتوجيه سليمين يقول النبي ﷺ: «**ليس منا من لم يوقر الكبير، ويرحم الصغير، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر**»[3].

وتتأكد الرحمة من بين الصغار باليتامى منهم، فالأطفال الصغار الذين فجعوا بموت الوالدين أو أحدهما، هم بأمس الحاجة إلى رحمة فيّاضة بالحنان تكون كالبلسم الشافي تضمد جراحهم، يقول النبي ﷺ لرجل جاءه يشكو إليه قسوة قلبه، قال: «**أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك، ارحم اليتيم، واسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلن قلبك وتدرك حاجتك**»[4].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي بعثني بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم، ولان له في الكلام، ورحم يتمه وضعفه، ولم يتطاول على جاره بفضل ما آتاه الله**»[5].

وتتوسّع دائرة الرحمة من الوالدين والأولاد والأرحام، إلى كل أفراد الأمة

---

(1) رواه البخاري، 5/ 2235، رقم: (5651).

(2) رواه البخاري، 5/ 2235، رقم: (5652).

(3) رواه ابن حبان في صحيحه، 2/ 211، رقم: (464)، وأبو داود، 4/ 286، رقم: (4943).

(4) رواه أحمد في مسنده، 2/ 387، رقم: (9006)، والبيهقي في السنن الكبرى، 4/ 60، رقم: (6335)، والمنذري في الترغيب والترهيب، 3/ 237، رقم: (3844)، وقال الألباني: حسن لغيره.

(5) الطبراني في المعجم الأوسط، 8/ 346، رقم: (8828)، ورواته ثقات.

المسلمة التي إن سرى نور الرحمة في صفوفها وقلوبها، تماسكت وقويت ونهضت من جديد، وعلى العكس من ذلك فإن سرت القطيعة والقسوة والفظاظة بينها، تهدمت أركانها وتزلزلت قوتها واندكت معاقلها وأصبحت أثراً بعد عين، ومن هنا فإن النبي ﷺ أمرنا بالتراحم فيما بيننا، وشبه الأمة المسلمة بأكملها بجسد واحد ينشط ويقوى وينتصر، بالرحمة التي تجري في عروقه لتغذي كل خلاياه، ويفتر ويمرض إن لم يكن كذلك، يقول ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[1].

ولا تنس أيها الصائم المبارك، أن هناك أصنافاً من الناس هم بأمس الحاجة إلى قلبك الرحيم، وحنانك الوفير، أصناف قدَّر الله ﷻ عليهم أن يكونوا في حالة عوز وحاجة للآخرين، كأصحاب الأمراض المزمنة والإعاقات الشديدة الذين لازموا الكرسي أو الفراش، وغيرهم من ذوي العاهات المتنوِّعة، فهؤلاء شبوا في أحضان حياة صعبة ونشؤوا في كنف مجتمع ما استطاعوا أن يحققوا فيه أهدافهم وحاجاتهم، لقصور حالهم ولما فرضته عليهم عللهم من قيود مؤلمة، وأنت بحمد الله تعالى تتمتع بكامل الصحة والعافية، فهلا اعتبرت لما أصابهم، وترجمت هذا الاعتبار بمساعدة عاجلة طيبة لهم، ومد يد العون لمتطلباتهم، وإياك ونهرهم أو القسوة عليهم أو حتى نسيانهم، فإن ذلك ذنب عظيم وجرم كبير وشر مستطير، يتناقض كل التناقض مع قلب المسلم الرحيم، ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: 17].

بل إن الإسلام عمت رحمته حتى الحيوانات والعجماوات، لأنه دين الرحمة التي تتشعب لتشمل كل المخلوقات، فعن عبد الله بن جعفر قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه فأسرّ إلي حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس، وكان أحب ما

(1) رواه مسلم، 4/ 1999، رقم: (2586)، والبيهقي في السنن الكبرى، 3/ 353، رقم: (6223).

استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل، قال فدخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي ﷺ ذرفت عيناه، قال فأتاه النبي ﷺ فمسح سراته إلى سنامه وذفريه فسكن، قال: «**مَن رب هذا الجمل، لمن هذا الجمل؟**» قال: فجاء فتى من الأنصار، فقال: هو لي يا رسول الله، فقال: «**ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنها تشكو إلي أنك تجيعها وتدئبها**»[1].

وعن الحسن بن سعد عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة ـ نوع من الطيور ـ معها فرخان، فأخذنا فرخيها فجاءت الحمّرة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «**من فجع هذه بولدها، ردوا ولدها إليها**»، ورأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: «**من حرق هذه**» قلنا: نحن قال: «**إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلاّ رب النار**»[2].

وقال ﷺ: «**مَن قتل عصفوراً عبثاً، عجّ إلى الله يوم القيامة، يقول: يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة**»[3].

وفي صحيح ابن حبان عن جابر: أن النبي ﷺ مرّ عليه بحمار قد كوي على وجهه أو وسم، فلعن النبي ﷺ مَن فعل ذلك ثم قال: «**سبحان الله لا تضربوها على وجوهها**»[4].

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت**»[5].

وفي المقابل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**بينما كلب يطيف**

(1) البيهقي في السنن الكبرى، 8/ 13، والدارمي في سننه، 12/ 158، رقم: (6787)، ومسند أحمد، 1/ 205، رقم: (1754).

(2) رواه أبو داود، 3/ 55، رقم: (122).

(3) رواه ابن حبان في صحيحه، 13/ 214، رقم: (5894)، وغيره.

(4) رواه ابن حبان في صحيحه، 12/ 438، رقم: (5620).

(5) رواه ابن حبان في صحيحه، 12/ 438، رقم: (5621)، ومسلم في صحيحه، 2/ 623، رقم: (904).

بركية كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فسقته فغفر لها به»[1].

وقال ﷺ: **«بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه، حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له»**، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجراً، فقال: **«في كل كبد رطبة أجر»**[2].

وورد أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، كان يجمع حديث النبي ﷺ فدُل على رجل في قرية نائية في الشام، فلما وصل إليها رآه يطعم الكلاب، فسلم وجلس، وانشغل الشيخ بإطعام الكلاب، حتى إذا ما فرغ نظر إلى الإمام أحمد وقال له: لعلك وجدت في نفسك عليّ شيء؟ قال: نعم انشغلت بالكلاب عني، فقال الشيخ: إنا بأرض منقطعة، ولا تأتينا الكلاب إلّا نادراً، وقد جاءتني ترجوني أن أطعمها، فلقد ورد في الأثر: من قطع رجاء من ارتجاه، قطع الله رجاءه يوم القيامة.

الله أكبر، باللّه عليكم أيها الناس هل يوجد دين في الدنيا، يدعو معتنقيه للرحمة بالحيوان والطير وحتى النمل والحشرات، ويضع لهم كرامة وحرمة وتقديراً كالإسلام، بل ويتوَّعد بالعذاب يوم القيامة لمن يقسو عليهم ويعذبهم، هل يوجد في شرائع البشر المتعددة وقوانينهم المتقلبة، ودساتيرهم التي ملأت العالم، بنوداً ومواد تنص على وجوب الرحمة والإقلاع عن الهلع، والجشع المادي، كدين محمد بن عبد الله.

ألا ما أشد حاجة العالم الحائر الضائع إلى هذه التعاليم الإسلامية النبيلة،

(1) البخاري، 4/ 1279، رقم: (3280).

(2) رواه مسلم، 4/ 1761، رقم: (2244).

وما أحوج البشرية اليوم إلى بشائر الرحمة الربانية لتمسح دموع اليتامى، وتواسي الثكالى والمنكوبين وتعين الفقراء والمشردين، وتحنّ على المقهورين المظلومين، الذين شردوا وبددوا بسطوة المدنية الحديثة الظالمة، وسحقوا ببهرجتها الكاذبة.

لكن تعالوا معي لنتساءل، ما هي السبل والأسباب والمسالك التي إن سلكنها نلنا الرحمة العليا؟

أسباب الرحمة متعددة أيها الأحباب، ولقد أوضحها وبيّن أسبابها ربنا تبارك وتعالى في كثير من الآيات القرآنية منها:

❑ أولاً: الإحسان وعدم الإفساد في الأرض:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: 56].

فليس من المعقول ولا من المنقول، أن تنال الرحمة السماوية المفسدين في الأرض، بل إن النصوص تضافرت على الوعيد الشديد لمن يسعى في الأرض فساداً، ويكفي أن الحق ﷻ يمقت المفسدين: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64]. خاصة ذاك الذي يتسربل بقناع الليل، ليحيك الخطط والمؤامرات لضرب الأمة الإسلامية والإجهاز على مقدراتها وخيراتها، والانقضاض على أخلاق أبنائها وقيمهم ومحاسنهم سواء أكان من الخارج، أو كان سوسة تنخر في جسد الأمة من الداخل، بترويجه أفكاراً مسمومة تتناقض تماماً مع عقيدة المسلم وشريعته، فأخطر أنواع الفساد ذاك الذي يشرخ في صف الأمة ويفت من عضدها، وينال من قدسية كتابها وسنة نبيها، فهؤلاء لن تنالهم رحمة الرحمٰن الرحيم، إنما تنال المحسنين الأخيار، الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: 56].

❑ ثانياً: طاعة الله والرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: 132].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن

رَحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحَديد: 28].

من أقوى أسباب الرحمة طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله الكريم ﷺ أمراً ونهياً، فرضاً وتحريماً، لأن الله ﷻ خلق الناس، وهو أعلم سبحانه بما يصلح شأنهم، ويرفع حالهم ويزكّي أنفسهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: 14]، هو أعلم بنفس الإنسان من الإنسان، بمسالكها، ومنحنياتها، وكوابحها، ودوافعها، وتطلعاتها، وما يزكيها، وما يكدرها، فوضع للإنسان شرعاً ومنهجاً من شأنه أن يضبط سلوكه، ويقيد نزواته الجامحة الطائشة، وكذلك يثير طاقاته الكامنة ليكون منتجاً وفعالاً خيراً لنفسه وللعالم ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعرَاف: 54].

له الخلق، فهو الخالق وكلنا له عبيد، وله الأمر، فهو صاحب الأمر المتمثل في الشرع والوحي، وكلنا يستوجب علينا الانصياع لشرعه، وتحكيم دينه، وهجر شريعة الغابات وشريعة الطاغوت التي أفرزتها غرائز البشر وأهواؤهم، فالمطيع لله ﷻ، المتلمس أثر النبي الكريم في حياته، هو المستحق للرحمة السماوية.

وفي المقابل فإن الخاسر هو الذي يعرض عن طاعة الله تعالى، ويهرول ليطيع غير الله من أعداء الله، يطيعهم في التصورات والمعتقدات، يطيعهم في التفاعل مع الحياة أخذاً ورداً سلباً وإيجاباً، يطيعهم في الثقافة والأخلاق، فيتعرى عن ثقافته وأصالته وأخلاقه وقيمه ومبادئه، ويركع لأخلاق الغير وثقافتهم الدخيلة والمستوردة، ولطالما حذرنا القرآن من طاعة غير الله سبحانه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عِمرَان: 149].

طاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة الحتمية والبوار الأكيد، طاعتهم ليس فيها ربح ولا مفازة، فيها الارتكاس على الرؤوس، والانقلاب على الأعقاب إلى الكفر، لأنهم كفروا بالله وبرسوله، وبالتالي من أطاعهم ارتد من الإيمان إلى الكفر، وأي ربح يتحقَّق بعد خسارة الإيمان؟

❑ ثالثاً: ومن أسباب الرحمة الاستغفار:

قال تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النَّمل: 46].

وفي الحديث القدسي، عن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة**»[1].

لأن العصمة من الزلل هو من شأن القيادات الروحية والفكرية من الأنبياء والرسل وكذا الملائكة، أما الإنسان فهو قاصر بطبعه، ميّال للهوى بنفسه الأمارة بالسوء، فمن الواجب على الإنسان الذي يصبو لرحمة الله، أن يرسل نظرات فاحصة ناقدة في جوانب نفسه ليتعرف على عيوبها وآفاتها، وأن يرسم الخطط القصيرة المدى، والطويلة المدى ليتخلص من هذه الهنات التي تزري به، فالاستغفار ليس مجرد كلمات يتمتم بهن اللسان، إنما هو علاوة على ذلك، عزم أكيد على هجر مواطن الشبهات، ومراتع المحرمات، لينقي نفسه مما علق بها من الشوائب والأدران، التي تجتاحها في خضم حياة البشر المعقدة التي تزدحم بشتى فنون المغريات والمنكرات، وبهذا يصبح العبد مستحقاً لرحمة الله تعالى.

❑ رابعاً: ومن أسباب الرحمة:

جملة قضايا نفيسة شملتها الآية المباركة التالية، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: 71].

---

(1) رواه الترمذي، 5/ 548، رقم: (3540)، وأحمد، 5/ 167، رقم: (21510).

لقد حددت هذه الآية العظيمة بعض الأسباب المفضية إلى رحمة الله تعالى وهي:

أ - الولاء المطلق بين المؤمنين: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ وموالاة المؤمنين باب واسع الرحاب لولوج رحمة الله تعالى، ذلك لأن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المتماسكة، طبيعة الوحدة والتكافل والتضامن...

ب - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهذه الصفة إنما هي ثمرة منبثقة عن الولاية، لأن الولاية تدفعهم إلى ترسيخ مبادئ المعروف ومكافحة المنكر وأهله، وإعلاء كلمة الله تعالى، وتحقيق الخلافة لتعاليم الإسلام على الأرض.

ج - إقامة الصلاة: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي الصلة التي تربطهم بالله، فتشرق روحهم بهدايات الرحمٰن الرحيم.

د - إيتاء الزكاة: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهي صورة حية لتحقيق التضامن الحسي والمادي في آن واحد بين المسلمين.

هـ - طاعة الله والرسول: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وقد أسلفنا الحديث عنها قريباً.

وختم الحق هذه الصفات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ والرحمة ليست مقصورة على الآخرة وحدها، إنما هي في الدنيا قبل الآخرة، فرحمة الله تشمل الفرد المسلم عندما ينهض بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة... وتشمل الأمة المسلمة يوم تجعل من الولاية أساساً لانطلاقها في الحياة، وهي تكابد مشاق الدنيا وعقباتها، وبالتالي يتحقق لها التعاون والتضامن والطمأنينة الكاملة، ورحمة الآخرة تنتظرها يوم العرض الأكبر.

بعد كل هذا الذي رأينا من المعاني السامية والصفات النبيلة، التي احتوتها كلمة الرحمة لربما يطوف سؤال في ذهن بعض الناس، ويمور إشكال في سراديب مخيِّلتهم، أو لربما أثار هذا السؤالَ بعض المتربصين بالإسلام، بقصد النيل من كرامة هذا الدين، والسؤال هو: إذا كان الإسلام دين رحمة، فلماذا ذخر القرآن بآيات تتحدث عن الحدود الزاجرة التي تصل أحياناً إلى القتل والقصاص فأين هي الرحمة؟

الجواب أيها السادة: الرحمة ليست عاطفة جيّاشة فوّارة لا عقل يضبطها، ولا شرع يحددها، وليست حناناً ترفض الحق وتعرض عن العدالة، إنما هي رحمة تساور قضايا الأمة برمتها، ابتداء من العابدين العادلين، وانتهاء بالأشرار المجرمين، نعم لأن الحدود الزواجر التي جاء بها الإسلام هي قمة الرحمة على مستوى الفرد والأمة، فلو لم يكن هناك روادع ترهيبية تزجر المجرم وتكف شر المفسد، لاستشرى الباطل، وعمّ الفساد، وسفكت الدماء ونهبت الأموال، وانتهكت الحرمات، إنك إن رحمت المجرم الباغي ولم تحاسبه على صنيعته الشنعاء، تكون بذلك مشجعاً على الجرائم والرذائل التي تصدر عنه، بل ومسهماً في بث سمومها في المجتمع، وبالتالي تكون محفزاً لهذا المجرم أن عاود لجرائمه، لأنه يعلم أن هناك أناساً رحماء مهما صنع فلن ينال عقاباً...

هبْ أن إنساناً تسوّر جدار منزلك، ودخل في هدأة الليل بيتك وذبح أطفالك واعتدى على زوجك، وسرق أموالك، ثم قبض عليه، هل تعفو عنه، أم تنادي بتطبيق القصاص لقتله؟ بل لربما من شدة فوران دمك تطالب بأخذ القصاص من أبنائه كذلك...

إذن فكيف يريد بعضهم أن يعفو عن الشذاذ اللصصة، إننا بعفونا عنهم نكون قد أهدرنا حقوق الناس، وجعلنا حرماتهم وأعراضهم وأموالهم مشاعاً، ولقمة سائغة لهؤلاء المجرمين، أما إن أخذنا على أيديهم وطبقنا عليهم حكم السماء، نكون بذلك قد جعلناهم عبرة لمن يعتبر، وبالتالي يستتب الأمن وتصان الحقوق

ويسعد الجميع، فالحدود على هذا هي رحمة للفرد لردعه عن غيه، وللمجتمع لصون كرامته ومكانته، وبهذا تتحقق الرحمة بأسمى معانيها.

obeikandl.com